الفصل الرابع

محمد بن عبد الوهاب

ولأن حركة محمد بن عبد الوهاب (١) الدينية ارتبطت بتطور سياسى ، وبمستقبل دولة وحكومة — يؤرخ لها من جانبين :

من جانب أحداثها السياسية ، وصلة الحكومة القائمة على رعايتها ، بجانب الدعاة الدينيين ، بالحكومات الأخرى المجاورة فى شعب الخلافة الاسلامية العثمانية . ثم فى تطورها واتساع رقعتها أو انكماشها وانحصارها فى مكانها الأصيل — الى غير ذلك من المظاهر السياسية والتاريخية البحتة ، لحكومة ذات علاقات بحكومات أخرى .

ثم يؤرخ لها من جانب آخر ، وهو أنها حركة دينية ، ترسمت خطوات حركة أخرى سبقتها فى القرن الرابع عشر الميلادى . وهى حركة محمد بن تيمية الحرانى . وفى هذا الجانب بالذات يؤثر الحديث عن مدى الصلة بين الحركتين ، ومدى المفارقات بينهما . ان كانت هناك مفارقات .

والذى يهمنا من حركة محمد بن عبد الوهاب هو هذا الجانب الثانى بالذات ، من غير اهمال للجانب الأول . فى صلته بنشاط هذا الجانب ، وفى قوته أو ضعفه .

محمد بن عبد الوهاب نشأ فى بلدة : « عينية » بالقرب من الرياض . وتتلمذ على والده القاضى الحنبلى فى هذه القرية : قرأ فقه ابن حنبل ، والتفسير والحديث ، على عادة القرون الوسطى فى تلقى المعرفة . وتحصيلها ، وفى نوعها وعدد موادها .

---

(١) عاش مابين (١١١٥ — ١٢٠١ هـ) : (١٧٠٣ — ١٧٨٧ م).

وبالاضـــافة الى ذلك اطلع على كتاب ابى تيمية ، وتلميذه : ابن قيم الجوزية (١) .

وقد رحل محمد بن عبد الوهاب من بلدته التى نشأ بها الى مكة ، والمدينة فى الحجاز ، والى الاحساء ، فى منطقة الخليج العربى ، والبصرة ، وبغداد ، فيما بين النهرين (العراق) ، والى دمشق فى سوريا ، وأصفهان ، وقم فى ايران . وأقام فى هذه مدة تزيد على اثنى عشر عاما ، قضاها فى الدروس والتعليم . ويقال انه تزوج وهو بمدينة بغداد .

وبهذه الرحلة الطويلة ضم معرفة تجريبية واقعية عن الاسلام والمذاهب الاسلامية وأثرها فى توجيه المسلمين ، الى تلك المعرفة النظرية التى وقف عليها فى المصادر السابقة . وهو فى الارتحال شأنه شأن أستاذه ابن تيمية من قبل ، وشأن أصحاب الحركات الاســـلامية الأخرى بعده ، من امثال : محمد بن على السنوسى الكبير ،

ومحمد جمال الدين الأفغانى ،
ومحمد عبده .

وقد عاد الى بلدته التى ولد فيها فى اقليم نجد . وصمم على أن يجهر بدعوته فجهر بها . لكن لم يجد سعة قبول لها من مواطنيه ، لما يقال من: تأخرهم ، وتخلفهم ، وتأخر البيئة النجدية على العموم ، وشيوع اعتقادها بالخرافة ، وتمسكها بالبدع .

وعندما أحس بهذه المعارضة ، ثم بقوتها وبتزايدها : رحل من عينية الى حيث يقيم الأمير السعودى فى شمال الرياض بقرية « الدرعية » .

وهناك تعاهد مع ممثل البيت السعودى ، الأمير محمد بن سعود ،

---

(١) وهو شمس الدين أبو عبد الله بن أبى بكر الذى عنى بمؤلفات أستاذه ونافح الفلســـفة على وجه أخص ، ومن أصـــحاب الاتجاهات الفكرية فى الاسلام . وعاش مابين (٦٩١ — ٧٥١ هـ) : (١٢٩٢ — ١٣٥٠ م) .

فى سنة ١٧٤٤ م على أن يبقى فى مقر الأسرة السعودية ، أينما كانت وفى مقابل ذلك يناصر الأمير بقوة سلطانه ، الشيخ فى دعوته . وظل الأمر على ذلك حتى توفى الشيخ فى سنة ١٧٨٧ م .

وبعد وفاة الشيخ والأمير معا تعهد أبناء الطرفين بالاستمرار فى تنفيذ اتفاق والديهما .

ولم يزل الوضع فى صلة الدعوة الوهابية بالحكومة السعودية ، على ما كان عليه ، حتى الوقت الحاضر .

وبهذا التعاهد اجتمع لهذه الدعوة سلطان الحاكم وقوة الايمان بها ، وقلما اجتمع الأمران فى حركة دينية ، بعد عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، سوى هذه الحركة .

ومن هنا كان يؤمل كثيرا فى نشاط هذه الحركة .

ومن هنا تكون خيبة الأمل كبيرة كذلك لو لم تفد هذه الحركة من هذه القوة المزدوجة — فى سلطان الحاكم وايمان الداعى — فى توضيح خطة الاصلاح وتطبيق هذه الخطة فى حياة تعد نموذجية للحركات الاسلامية الأخرى بعدها فى المجتمعات الاسلامية .

* * *

١ — الجانب السياسى :

وارتباط صاحب الامارة السعودية بالشيخ القائم على هذه الدعوة يؤرخ للجانب السياسى للحركة الدينية لمحمد بن عبد الوهاب .

ويذكر المؤرخون أن الامارة السعودية اتسعت رقعتها ، وزاد نفوذها وسلطانها فى شبه الجزيرة العربية ، فدخلت مكة ، والمدينة فى الحجاز فى نطاق سلطان السعوديين ، وبالتالى فى مجال نشاط هذه الحركة . وبذلك تهيأت الفرصة الموسمية للحج لشرح أسس الحركة الوهابية فى مكة ونشر تعاليمها ، ليس بين علماء الحجاز كل عام فحسب بل يقال : ان الدعوة

انتشرت عن طريق هذا اللقاء فى مكة خارج شبه الجزيرة العربية . شرقا.. وغربا : شرقا فى الهند وأندونسيا ، وغربا فى السودان وشمال افريقيا .

كما يقال ان محمد بن على السنوسى ، والسيد عثمان الميراغنى ، كلاهما تأثر بهذه الدعوة فى نشر الحركة السنوسية فى شمال افريقيا وقلب الصحراء، ونشر الطريقة الميراغنية فى السودان شرقا وشمالا .

أما فى غرب افريقيا فيقال : ان الشيخ عثمان بن فودى من قبيلة الفولا حمل مظاهر هذه الحركة ، وكون على أساسها مملكة اسلامية استمرت فترة من الزمن حتى أطاح بها الاستعمار الغربى .

وفى البنغال ، فى الهند ، حمل اليها بذور هذه الحركة سيد أحمد ، أحد أمراء الهنـــد .

وفى سومطرا ، انشأ احد الحجاج الأندونيسيين فرعا يقتـدى فى اتجاهه بالفكر الأصلية لحركة محمد بن عبد الوهاب .

وبعد فترة من الزمن ، امتد النفوذ السعودى الى خارج شبه الجزيرة العربية ، بعد أن وصل الى عمان ، وزبيد فى جنوب اليمن .. امتد هذا النفوذ الى قلب العراق ، وضواحى دمشق . وبقى هذا النفوذ قائما ، حتى وقعت الهزيمة العسكرية للسعوديين فى سنة ١٨١٨ م بقيادة ابراهيم باشا ابن محمد على الكبير .

وسبب هذا الاشتباك العسكرى السعودى المصرى هو التكليف الذى صدر من مقر الخلافة العثمانية ، على عهد السلطان « محمود » الى رأس الأسرة العلوية فى مصر ، محمد على ، بلقاء الســـعوديين وردهم الى مقر ولايتهم الأولى .

ويقال ان سبب هذا التكليف شيئان :

الأول : خشية السلطان على سلطته وخلافته ، لو زاد نفوذ السعوديين وامتد فى جوانب الامبراطورية الاسلامية فى ذلك الوقت .

وثانيا : ضيق المسلمين بتشدد الحركة الوهابيـة فى نظرتها الى غير اتباعها من المسلمين ، وفى صلابتها فيما تسميه : القضاء على « البدع » أو

« الشرك » . وكان فى مقدمة المسلمين استنكارا لهذه الحركة ، وحقدا على دعاتها ، علماء نجد ، واشراف مكة . وربما كان ذلك بسبب خشيتهم من قوات سلطانهم ، لو قدر لهذه الحركة الاستمرار فى النجاح ، والتمكن فى السلطان .

ومما ساعد على زيادة هذه المخاوف ، وزيادة ضيق المسلمين بهذه الحركة ، دعاة هذه الحركة أنفسهم . ومبالغتهم فى تحديد البدع ، والمخالفات الدينية ، ثم تنفيذ السلطة الحكومية بالقوة ما يطلبه دعاتها .

وفى الاشتباك العسكرى المسلح بين القوات المصرية والقوات السعودية لم يكن النصر حليف المصريين أول الأمر . بل هزم الجيش المصرى قبل انتصاره الأخير ، على عهد قيادة الأمير طوسون .

ولكن مالبث النفوذ السعودى أن عاد بالتدريج الى قوته ، والى سيطرته نهائيا على نجد والحجاز ، على نحو الوضع القائم ، منذ سنة ١٩٢٥ بعد توقيع معاهدات مع أمراء الجزيرة العربية الآخرين من جهة ، والانجليز من جهة أخرى .

* * *

٢ ــ الحركة الدينية الاصلاحية :

هذا ما يقال عن الجانب السياسى . وقد زاد هذا الجانب قوة بعد أن اكتشف آبار البترول على شاطىء الخليج العربى مما يدخل فى حدود المملكة العربية السعودية الآن . واصبح للنفوذ السياسى فى شبه الجزيرة العربية قوة اقتصادية ،

ولو نظم أمر هذه القوة الاقتصادية لأفادت فى دفع الحركة الدينية وفى بناء هذه المملكة على أسس اسلامية سليمة ، كما يبغى دعاة هذه الحركة . ولكنهم لم يخطوا الخطوات الايجابية حتى فى الانتفاع بالاسلام ، أو على الأقل فى عرضه العرض الصحيح المنتج ، كما سيبدو لنا فيما بعد .

ولمحمد بن عبد الوهاب ، مؤسس هذه الحركة ، عدة كتب ــ كما يروى المؤرخون ــ من بينها : كتاب : « التوحيد » وكتاب : « كشف الشبهات » ثم كتاب : « تفسير القرآن » .

ويضيف الأستاذ أحمد أمين فى كتابه « زعماء الاصلاح » أن الشيخ كتب بخط يده رسالة لابن تيمية ، مودعة الآن فى المتحف البريطانى بلندن .

* * *

أسس الدعوة الوهابية :

وترجع أسس هذه الدعوة الاسلامية الى ثلاثة أنواع :

أولا : فيما يتصل « بالأصول » وهى العقيدة :

* فانها هنا تدعو الى توكيد « التوحيد » ونفى « الشرك » بحيث تقصر القداسة والعبادة على الله وحده .

ويفهم من معنى القداسة والعبادة كل معنى يقوم على الاحترام . ولو كان بحكم الألف والعادة : فبناء القبور على وجه الأرض ، وزيارتها فى انتظام ، والوقوف عندها فى خشوع ، ليست منافذ ينفذ منها الانسان الى « الشرك » وعدم « التوحيد » . بل هى شرك على الحقيقة . ولهذه المبالغة فى فهم معنى التوحيد ، أو فهم معنى الشرك سمى دعاة هذه الحركة حركتهم باسم « التوحيـــد » .

وهنا فى هذه المبالغة يمكن عامل « الفرقة » بينهم وبين بقية المسلمين . فبينما هم يرون انفسهم موحدين أو أهل توحيد ، ويرون غيرهم — ممن لا يسلك سبيلهم فى المبالغة — مشركين ، اذا بغيرهم ينظرون اليهم على أنهم: أهل تشدد وتزمت ، وأصحاب ضيق فى الأفق والفهم لهذا الأصل الاسلامى ، وهو أصل التوحيد . لان زيارة القبور ، أو اقامتها على وجه الأرض سوف لا يعيد الآن بحال وضع الوثنية العربية الأولى على عهد الدعوة الاسلامية . ومن ثم لا وجه لخشية الشرك ، فضلا عن وقوعه ممن يقيم القبر أو يزوره .

والوثنية التى يمكن أن توجد فى القرن العشرين ، ليست وثنية الأحجار أو الأموات ، انما هى وثنية الأحياء أصحاب السلطان والنفوذ . ولا يقضى على هذه الوثنية بالدعوة الى هدم القبور ، وتحريم زيارتها ، وانما بتحقيق شعور المساواة بين الحاكم والمحكوم ، وبتحقيق الاخاء والتعاون فى الاسلام بين الفرد والمجموع ، وتحقيق بقية المبادىء الاسلامية الأخرى فى المجتمع الاســـــلامى .

* تنادى هذه الحركة باتباع مذهب السلف فى صفات الله . وهو المذهب المعروف بالتفويض فى كيفية اتصافه بها ؛ بعد الايمان بأنه سبحانه يتصف بهـــــا .

وبذلك لا ترى رأى المعتزلة القائلين بأنها عين الذات ، وليست غير الـذات .

كما لا يرون رأى الأشاعرة القائلين بأنها ليست غيرا ، وليست عينا .

وواقع الأمر : أن المسلمين ، بعـد القرن الأول الهجرى ، جعلوا من « الصفات » لله مشكلة ، على أثر أن تأثروا بالفكر الأفلاطونى الحديث ، وبالنزعة المسيحية فى الأقانيم . ولو أرجعوا الأمر الى القرآن وحده لما كانت هناك مشكلة فى هذه الصفات ، ولتحدد تصور المسلمين لاتصاف الله بها بنوع مداركهم وتصورهم لنصوص هذه الصفات ، دون حاجة الى مناقشة جدلية عقلية فى كيفية الاتصاف بها .

وثانيا : فيما يتصل بالفروع . وهى الفقه . نرى :

* **أن** فقه الحركة الوهابية يتبع مذهب ابن حنبل ، بوجه عام . ولكن اذا صح من وجهة نظر الكتاب والسنة رأى على خلاف ماينسب لأحمد بن حنبل ، فانه يتبع . وذلك مثل : تقديم الجد على الاخوة فى الميراث . اذ عكس ذلك منسوب لابن حنبل . وهذا يتصل اتصالا وثيقا بفكرة الاجتهاد ، وفرضه ، وعدم التقليد المطلق .

* وأن تقصر الحجية فى مصادر التشريع على القرآن والسنة الصحيحة وحدهما . أما الاجماع فيتوقف اعتباره على وجود شاهد له من القرآن والسنة الصحيحة . وبذلك تعود حجيته (أى الاجماع) الى حجية القرآن والسنة . ومقصود الاجماع — فى الأغلب — على نحو ما هو معروف لابن تيمية ، من رغبته فى قصره على اجماع مجتهدى الصحابة ، عليهم رضوان الله ، لايتعداه الى اجماع التابعين أو المجتهدين فى كل جيل بعدهم .

* وتنكر تقليد غير واحد من الأئمة الأربعة : ابن حنبل ، ومالك ،

وابى حنيفة ، والشافعى . وذلك ـــ كما تذكر ـــ لعدم ضبط مذاهب من عداهم ، كمذهب الشيعة ، أو مذهب داوود الظاهرى الأصفهانى .

تنكر هذه الحركة مذهب الشيعة فى الفقه ، تبعا لتأثرها بموقفها السلبى من القول بالعصمة ، وبالوسيلة فى مذهب الشيعة فى « الأصول » .

ولكن اذا كان القول بالتقية ، والوسيلة ، كلاهما ليس أصلا من أصول الفقه فى نظر الشيعة ، فأية صلة بين رفض الفقه الشيعى وبين عقيدة أو عقيدتين لا دخل لواحدة منهما فى الفقه والاستنباط ؟

والعصمة اذا أخذت بالتطبيق الشيعى لها عند الزيدية ، أو الامامية ، من أنها تجنب الخطأ فى العمل من الامام ، فصلتها بالتفقه عندئذ ـــ وهو البحث النظرى ـــ صلة ضعيفة .

نعم لو أخذت العصمة كعقيدة ، على أن ما يأتى به الامام ، قولا أو عملا ، واجب الاتباع ـــ عندئذ ، يكون قوله أو عمله أشبه بالسنة الصحيحة. وهنا تقول الحجة الوهابية ضد الفقه الشيعى القائم على مثل هذه العصمة . لأن الانسان المجتهد ، بعد الرسول عليه السلام ، لايلزم غيره باجتهاده ، ولا يلزم غيره بتقليده . انما الالزام باجتهاده قاصر عليه نفسه ، فيما اجتهد فيـــه .

وثالثا : فيما يتصل بموقفها السلبى ضد الاتجاهات الاسلامية المذهبية والفكرية الأخرى فانها :

* تحارب الفلاسفة ، على نحو ما حاربهم ابن تيمية ، وابن قيم الجوزية من قبـــل .

* وتحارب من يعتقد من الشيعة « بعصمة الامام » والقول : بالتقية ، والوسيلة . والوسيلة هنا اتخاذ الامام واسطة ، عن طريق تلقى تعاليمه، واتباع رأيه فى الوصول الى الآخرة ، وهى القربى من الله سبحانه وتعالى .

والوسيلة على هذا النحو جاءت الى الجماعة الاسلامية عن طريق

مدرسة الأفلاطونية الحديثة . فقد حددت هذه المدرسة العالم الرفيع فى الوجود الرفيع فى القيمة ، من اجل كونه أصلا لما عداه ، ومشرفا ومدبرا لغيره ، وراعيا لتوجيهه ، بثلاثة من الموجودات كما سبق ذكر ذلك غير مرة — وهى :

الأول ،

العقـــل ،

النفس الكليـــة .

والوسيلة ليست عقيدة خاصة بغلاة الشيعة ، وهى ايضا توجد عند الصـــوفية المنحرفة . ويلعب الدور الأول فيها « المريد » أو صـــاحب « الفراسة » .

وكذلك توجد عند عوام الفرق الأخرى ، تقليدا ، والفا ، وعادة . ويمثل هذا الدور فى نظرهم : « الأولياء » ، وهم أصحاب « الكرامات » .

والاسلام فى تحديده للأولياء ، لم يعرف ذلك التحديد العرفى . والولى لم يزل فى القرآن هو المتبع لكتاب الله ورسالته .

وأولياء الله الذين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون — هم أولئكم اصحاب الايمان القوى ، بحيث لايزعجهم فى حياتهم نقص فى الأموال . والأنفس والثمرات ، ولاتزعجهم هزيمة ، ولاطغيان صاحب سلطان .

* وتحارب المتصوفة المتأخرة ، لقولها : بالاتحاد ، والحلول ، وبرفع التكاليف ، بناء على فهمها الخاص (أى فهم المتصوفة المتأخرة) فى القرآن ، من أن له ظاهرا وباطنا .

* كما تحارب وجوب شد الرحال الى قبور الصالحين أو الأولياء ، وفى مقدمتهم : صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام وعليهم رضوان الله .

* * *

التعليق على حركة محمد بن عبد الوهاب :

ويلاحظ فيما عرضنا لعناصر هذه الحركة من الوجهة الفكرية :

أولا : أن حركة محمد بن عبد الوهاب فى القرن الثامن عشر قامت على أساس التمذهب بمذهب معين ، وهو مذهب أحمد بن حنبل . ولأنها أسست على التمذهب بمذهب معين تعتبر امتدادا فى التمسك بالمذاهب الإسلامية ، كل منها على حدة ، وتمثل طورا من أطوار التبعية لمذهب خاص .

ثانيا : اذ تنادى هذه الحركة بالرجوع الى « مذهب السلف » ، لاتعنى أكثر من ابعاد القياس والعرف ، مع التزام نصوص القرآن والحديث الصحيح فى التفقه فى دائرة التشريع . وبذلك تستمر فى مجال الخصومة المذهبية . ولاتعنى أيضا فى دائرة الحياة العملية الا محاربة المستحدث من العادات ، بعد فترة الامام السلفى ، وهو رائد المدرسة الحنبلية .

ثالثا : لم تقصد من أول الأمر أن تكون حركة « عود على بدء » ، على معنى : تصفية العصبية للمذاهب الفقهية ونخلها ، فى التشريع وفى المعاملات ، ولمذاهب العقيدة فى تصور الله والاعتقاد به . عن طريق علمى . ثم السير بالفرد وبالجماعة فى حياتهما على النحو الذى ساد قبل المذاهب الاسلامية ، أو على الأقل قبل وضوح العصبية المذهبية وقوتها فى تفريق الجماعة الاسلامية .

رابعا : الحركة الوهابية تقليد آخر ، وليست تجديدا انطوى على استقلال فى بيان قيمة المذاهب الاسلامية فى العقيدة والتشريع فى المعاملات ، وفقه العبادات .. هى تقليد لحركة الشيخ تقى الدين بن تيمية فى ذلك ، وليست استمرارا لحركته فى نقدها ، فى هدمها وبنائها .

* ولكن ، ان كانت تعتبر تقليدا ، أو استمرارا لطور التقليد — فانها تتميز بأنها صانت آراء ابن تيمية ، وعنيت بها فى القرن الثامن عشر ، بعد مدة أربعة قرون لم تلق فيها هذه الآراء العناية الكبرى التى لقيتها من جانب حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب . سواء من جانب الدعوة والتمسك

بها ، أو من جانب الاعتراف بها رسميا من بعض السلطات القائمة فى البلاد الاسلامية . وبعد أن كانت تعتبر أيام ابن تيمية نفسه ، وبعده بقليل — فى التقدير العام للمسلمين من العامة وأرباب المذاهب — نوعا من الخروج فى فهم الدين أو نوعا من الالحاد .

وهى تعتبر قنطرة لآراء ابن تيمية ، مرت عليها الى الأجيال القادمة . وتعضيد السلطة الرسمية السعودية أعطاها قوة البقاء والاستمرار .

* وآراء ابن تيمية وان تمسك فى الفقه بمذهب الامام أحمد بن حنبل — تضمنت أو قامت على النقد العلمى للمذاهب الاسلامية الأخرى . وان لم يبلغ هذا النقد درجة عليا فى الحيدة وعدم التاثر بالجانب الشخصى فيه .

ولهذا تعتبر الحركة الوهابية بعده : الحركة الاسلامية التى حوت بذور « النقد » بصفة عامة وقدمتها الى الحركات الاسلامية الأخرى ، فى القرنين التاسع عشر والعشرين .

ومن أجل ذلك تعتبر تمهيـــدا لهذه الحركات ، كما تعتبر نوعا من « التقدمية » بالقياس الى عصور التبعية المطلقة . لأن طابع النقد صاحبها، وان لم تسر فيه بخطوات واضحة .

وسنلاحظ : فيما بعد : أن طابع الحركات الاسلامية الحديثة والمعاصرة الهادفة الى اعادة القيمة للمبادىء الدينية فى حياة المسلمين ، الذى أخذ يتبلور شيئا فشيئا ، هو :

النقد « العلمى » ،

أو هو التصفية والنخل لمؤلفات المذاهب الاسلامية الأخرى .

واضعاف التبعية المذهبية . كى تعود تعاليم الجماعة الاسلامية من جديد قريبة من القرآن والحديث الصحيح وحدهما . وان اختلفت الآن بعد هذا القرب ، مع تلك الآراء التى سادت فترة الركود العقلى واكتفت بالشرح، أو التلخيص ، لما ترك الأولون فى الجماعة الاسلامية .

* ومع أن المعروف ، أن ابن تيمية ، فى هجومه على الشيعة ، كان يقصد فرقة الغلاة منهم التى سماها « الرافضة » ، وكان يوجه نقده على الأخص لجماعة الباطنيين ، أو التعليميين منهم — مع ذلك لما ورثت الحركة الوهابية اتجاه ابن تيمية وسعت شقة الخلاف بين السنة والشيعة عامة . وغالت فى تصوير الشيعة على الاطلاق ، وأصبحت الفجوة كبيرة فى النزاع المذهبى بين السنة والشيعة منذ القرن الثامن عشر الميلادى ، بل أصبحت أشد من ذى قبل . وكانت زيادة الفجوة على هذا النحو اثرا سلبيا للدعوة الوهابية .

يضاف الى هذا الأثر السلبى لها فى هذا الجانب أثر سلبى آخر ، أتت به فى مسألة القبور وزيارتها . فتشددها فى تحريم شد الرحال الى القبور — وهو رأى أو عقيدة سليمة فى أصلها — حدا برجال السلطة السياسية القائمين على صيانة الحركة الوهابية ونموها أن يمعنوا فى ازالة القبور وانتهاك حرمة الموتى ، وعلى الأخص انتهاك حرمة رجال من الصحابة كان لهم أثر لا ينكر فى الدعوة الاسلامية .

* ولو أن الحركة الوهابية سارت فى نخل الآراء الاسلامية فى مذاهب الجماعة الاسلامية المختلفة ، وساعدت على ايجاد حركة علمية تهدف لهذه الغاية ثم ولت وجهها نحو الحضارة المعاصرة والفكر المعاصر ، واتخذت منهما موقفا يمليه عليها الكتاب والسنة ، قبل أن يتحزب فى تفسيرهما المسلمون ، وقبل ان يفرقوا دينهم شيعا وأحزابا — لو أنها فعلت ذلك :

لأفادت فى بناء حركة علمية اسلامية سليمة ،

ولأفادت كذلك فى تنوير الرأى الاسلامى بالمقومات السلبية التى تصاحبها ، مما قد يستسيغه ميزان الكتاب والسنة ،

ولأفادت ثالثا فى نهضة شعب عربى فى الجزيرة العربية نهضة اجتماعية وتوجيهية ، بحيث تصلح أن تكون عنوانا واضحا لحكم حديث قام على أسس اسلامية .

* ان الحركة الوهابية تشددت فيما وسع الخلاف بينها وبين الشعوب الاسلامية الأخرى . وبالأخص بينها وبين الجماهير فى هذه الشعوب .

ان دعوتها الى القرآن والسنة صاحبها تفسير تطبيقى عملى لها ، أبعدها عن الوضع والهدف يوم أن نادى بها ابن تيمية .. صاحبها تفسير تطبيقى عملى لها يشير : الى أنها الدعوة الى الحياة الصحراوية على عهد الجماعة الاسلامية الأولى . وليست الدعوة الى الاسلام الواضح ، كما يمثله القرآن والسنة الصحيحة . ذلك الاسلام :

الذى يساوق الحضارة الصناعية ،

ويساوق المستوى الرفيع فى الحياة الانسانية ،

ويساوق « التقدمية » فى بناء الجماعة بناء سليما .

انها لم تستسغ حتى الآن — من الوجهة النفسية — عصر « الآلة » الحديثة ، فضلا عن عصر « الآلية » والتيكنولوجيا القائمة . مع أن الدعوة الى القرآن والسنة قصد بها أولا وبالذات سير الحياة الاسلامية فى ظل تعاليم الاسلام . بل صحبة الحضارة الصناعية التى لابد منها الآن لحياة شعب يرتفع بنفسه عن مستوى الحياة الدنيا فى المعيشة بما يكتنفها من ضعف واذلال .

* ان سير الحركة الوهابية — من الوجهة الفكرية ، والعملية — الآن يسند :

اتجاها ليس هو الاتجاه صاحب الأثر الايجابى فى نهضة شعب جزيرة العرب ،

ولا هو كذلك صاحب أثر ايجابى فى ربط طوائف الجماعة الاسلامية بعضها ببعض ،

ولا هو ثالثا مما يدل على أن الاسلام دين لحكم الجماعة ، واصلاح الفرد ، وأنه يستطيع مواجهة الأحداث وألوان الحياة المختلفة .

* ان الفجوة بين الفكرة الأساسية للحركة الوهابية وبين التطبيق العملى فى حياة المؤمنين بها فجوة واضحة .

ان مجال الفكر الوهابى والعقيدة الوهابية مجال القراءة والترديد .

انه مجال الاصطناع والاحتراف بها فى غير بناء ، وفى غير ملاءمة .

اما حياة الجماعة الوهابية فانها على نحو حياة أية جماعة اسلامية أخرى ، تسير فى عزلة عن الفكر والآراء الاسلامية ، وتخضع فى تحركها وفى سيرها الى عوامل مرددة بين اتجاهات شرقية وأخرى غربية ، وبين عادات وتقاليد لايحددها مصدر واحد .

وكان المؤمل فى معانقة السلطة الرسمية لها أن تتميز عن أية حركة اسلامية أخرى بالتطبيق العملى ، وفقا للفكرة الأصلية ، السلبية والايجابية معا . وأن تكون حياة الجماعة التى آمنت بها عنوانا تتجلى فيه فكرة الداعى، كما آمن بها وتركها من بعده .

* أن التآخى بين تعاليم المذهب الوهابى والسلطة الزمنية فى المملكة العربية السعودية — طبقا للعهد الذى وقع بين الشيخ والأمير سنة ١٧٤٤م — كان :

يحتم ابعاد الثنائية فى التعليم فى هذه المملكة ، وتوزيعه بين دينى ومدنى .

ان البلاد الاسلامية وفى مقدمتها مصر ، سلكت هذا الطريق الثنائى تحت ضغط الاستعمار الأجنبى . مع أن التربية السليمة كانت تفرض مدرسة واحدة فى مرحلة التعليم العام ، يقوم منهجها على التراث الاسلامى والعربى قبل كل شىء . وهنا لم يشأ الاستعمار أن تتجه البلاد الاسلامية التى تحت نفوذه ، فى التربية والتعليم هذا الاتجاه ، والا لأسست مايزيد القضاء عليه ، وهو الشخصية الاسلامية .

اما الامارة السعودية ، ثم المملكة السعودية من بعد ، فلم تقع تحت نفوذ استعمارى . ثم عاشت وكافحت ، وهزمت وانتصرت من أجل الدعوة الى آراء محمد بن عبد الوهاب ، ، وصاغت نفسها فى المجال الداخلى والخارجى كدولة اسلامية . فسلوكها مسلك البلاد الاسلامية ، التى وقعت تحت سيطرة الاستعمار الغربى ، فى ازدواج التعليم وتقسيمه الى نوعين ، لايتفق مع الارتباط الوثيق بين الدعوة والسلطة الرسمية . والا كان ذلك

آية فى نظر القائمين بأمر الدعوة والسلطة معا على أن التراث الثقافى الاسلامى والعربى لايطيق أن تنضم اليه معرفة أخرى ، مما تسمى بالمعرفة الانسانية ، فى مجال واحد . وهذا الافتراض لاتؤيده طبيعة التراث الاسلامى . واذن — كما ذكرنا — هناك :

انفصالية بين تعاليم المذهب الوهابى والحياة العملية لأتباع هـذا المذهب ،

وهناك انفصالية أخرى فى دائرة التعليم النظرى نفسه ، بين هذه التعاليم والثقافة الانسانية .

واذن تعاليم المذهب الوهابى ، كتعاليم الدين الاسلامى فى أى بلد اسلامى آخر ، فى عزلة عن الحياة ، وعزلة عن التعليم العام . وليس هناك أثر عملى لميزة التآخى بين الدعوة والسلطة ، لا فى مجال التطبيق ولا فى مجال التعليم العام .

ومع ذلك لم يزل لنا أمل كبير فى أن تأتى الخطوة الاولى فى تحقيق هدف هذه الدعوة من جانب « آل الشيخ ... » فانهم هم الذين ورثوا العناية بهذه الدعوة ، فى مجال الفكر والنظر ، وفى مجال التطبيق فى الحياة . وعليهم وحدهم تقع تبعة التقصير فى عرض هذا المذهب ، فى صورة مرنة تستوعب ظروف الحياة الحديثه ، وتحفز على النهضة الايجابية التى تؤسس على مقومات الحياة المعاصرة ، وهى حياة القوة المادية والمعنوية ، وتؤثر هذا الشعار على شىء آخر سواه ، وهو شعار : البقاء للأصلح .

والاسلام دين هذه القوة المزدوجة ، ومن أجلها تكمن فيه امكانيات البقاء والخلود .

* * *